فضيحة دولية استعمارية

عصبة الأمم
بين المد والجزر

بقلم باحث دبلوماسي كبير

كانت عصبة الأمم في نظرنا دائماً أداة دولية سريبة ، لا تتفق أعمالها وجهودها مع المثل والغايات السامية التي ادمجت في دستورها ، ولم نستطع يوماً مدى الخمسة عشر عاما التي قطعتها العصبة من حياتها أن نحمل على الثقة بها أو الاطمئنان لاستقلالها أو نزاهة وسائلها وغاياتها ؛ وإنما رأينا العصبة دائماً أداة مسيرة في يد الدول الغربية القوية توجهها حيثما شاءت لتحقيق مشروعاتها وغاياتها على حساب الأمم الضعيفة ، ورأيناها بالأخص سوط استعمار بالنسبة لبعض الأمم الشرقية ، تفرض عليها نير الانتداب وتنظمه لمصلحة الدول الكبرى التي توجهها ؛ ولم تقدم العصبة يوماً أي دليل على أنها تعمل لانصاف دولة ضعيفة أو أمة شرقية ، خصوصاً إذا ما تعلق الأمر بمصلحة دولة قوية أو أمة غربية ، ولم تنل العصبة توفيقاً في أي ميدان من الميادين العامة أو الانسانية التي تزعم أنها تعمل في سبيلها ، فلم يحقق مشروع نزع السلاح أو تحديده ، ولم يوضع نظام ثابت للسلامة العامة أو عدم الاعتداء ، ولم تكفل حقوق الأقليات أو الأمم الضعيفة بصورة مستقرة عادلة

ولكنا رأينا عصبة الأمم تتخذ فجأة لمناسبة النزاع الايطالي الحبشي صورة أخرى ، فتبعث دستورها من قبره وتطبقه بروح جديدة ؛ رأيناها تحل السيادة والحقوق القومية مكانتها ، وتعمل لاحترام استقلال الأمم الضعيفة ، فتصم إيطاليا بما تستحق من وصمات الاعتداء المنكر ، وتحرك من نصوص دستورها ما تراه كفيلاً بوقف الاعتداء ورد المعتدي إلى صوابه ؛ وتستجمع شجاعتها لتطبيق العقوبات الاقتصادية والمالية التي فرضت على المعتدي ، وتطبقها بالفعل على إيطاليا المعتدية ، فتحظر تصدير السلاح وجميع المواد الأولية إلى إيطاليا وتبيحه للحبشة ، وتطلب إلى أعضائها أن يقطعوا كل العلائق الاقتصادية والمبادلات التجارية مع إيطاليا ؛ فيلبي دعوتها نحو خمسين دولة أو ما يشبه الاجماع ؛ وهكذا رأينا عصبة الأمم تفتتح عهداً جديداً في سياستها وفي فهم مهمتها الدولية ، واستبشرنا بأن يكون العهد الجديد مفتتح الآمال بالنسبة للأمم الضعيفة ، فتستطيع أن تطالب بحقوقها وحرياتها ، وتستطيع أن تعتمد على ذلك التعضيد الدولي الذي تحمل لواءه عصبة الأمم

ولم يغب عن العالم مع ذلك ما هنالك من وراء ستار ، فقد فطن العالم إلى أن عصبة الأمم لم تكن في عملها مستقلة ولا مختارة ، وأنها كانت مسيرة موجهة فيما اتخذت من قرارات جريئة ؛ ولم يغب عن العالم أن السياسة البريطانية هي مبعث التوجيه والوحي الأول ، وأنها اتخذت هذه الخطة لأن الاعتداء الايطالي على الحبشة ، وتوسيع النفوذ الايطالي في شرق إفريقية ، وما يترتب على ذلك من إذكاء الروح الحربي الفاشستي ، يعرض الأمبراطورية البريطانية وسلامة مواصلاتها في البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وسيادتها في وادي النيل وشرق إفريقية إلى أخطار جسيمة ، وأن انكلترا لم تحرك أساطيلها الضخمة ، وتتخذ هذه الأهبات الحربية الواسعة النطاق في مصر وعدن وشرق إفريقية انتصاراً لقضية الحبشة أو دفاعاً عنها ، ولكن رداً للخطر الفاشستي الذي ظهر في الأفق فجأة ، وأخذ يزعجها بمطامعه وتحديه . بيد أن وقوف العالم على هذه العوامل المستقرة الظاهرة مما ، لم يثنه عن التصفيق لعصبة الأمم والاعجاب بموقفها وتصرفاتها في هذا المأزق العصيب ؛ ذلك أن الوسائل لا تهم دائماً ؛ وكفى أن عصبة الأمم قد انتهت إلى الغاية المقصودة ، وسيقت إلى العمل لصون الحريات والحقوق القومية ، وإلى الحكم على الاعتداء المنظم بأقسى الأحكام

ولهذا دهش العالم أيما دهشة حينما أذيعت شروط هذا المشروع الشائن الذي أسفرت عنه المفاوضات الفرنسية البريطانية الأخيرة كتسوية سلمية للمسألة الحبشية ، والذي أريد أن يقدم الى ايطاليا هدية سابغة على اعتدائها المثير لكي تكف عن المضي في أعمالها ومشاريعها الحربية . وقد وقف القراء على هذا المشروع وتطوراته فلا حاجة بنا إلى الافاضة فيه ، ويكفي أن نذكر أنه كان يقوم على تمزيق الحبشة تمزيقاً شائناً ، وبنص

على منح أكثر من نصفها لايطاليا ، ويحيط سيادة الحبشـة على الأراضي الباقية بقيود خطرة أو هو بعبارة أخرى يقضي بشقيه على الحبشة كأمة مستقلة ذات وجود ، ويمهد لاستعبادها النهائي في أعوام قليلة ؛ تقول ثار العالم كله لهذا المشروع الشائن الذي يتوج اعتداء ايطاليا بغار ظفر لم تحرزه ، ويحقق لها حلماً ما زالت تتخبط في غمر الصعاب لتحقق شطراً منه ؛ وأشد ما كانت دهشة العالم لأن السياسـة البريطانية التي ثارت من قبل لاعتداء ايطاليا وألبت عليها أمم العالم بواسطة عصبة الأمم وحملت العصبة على أن تقرر العقوبات الاقتصادية ، قد اشتركت في وضع هـذا المشروع الشائن الذي يقضي فجأة على آمال أمة مستقلة ما زالت تناضل عن حرياتها نضالاً يثير الاعجاب والاكبار ؛ على أن الصدى العنيف الذي أحدثه المشروع في العالم كله ، وفي الرأي العام البريطاني بنوع خاص ، كان كافياً لأن يحدث أثره بسرعة في استنكار هذه السياسـة الاستعمارية الصارخة ، واستنكار المشروع برمته ، وكان من جراء ذلك أن استقال السير صمويل هور وزير الخارجية البريطانية الذي اشترك في وضع المشروع ، وكان لاستقالتـه أعظم وقع كما شهدنا ، واضطرت الحكومة البريطانية أن تتراجع بسرعة ، وأن تعلن أنها لا تؤيد المشروع وأنها تعتبره قد مات ؛ هذا بينما كان المشروع مطروحاً أمام عصبة الأمم ، يلقى الضربة الأخيرة على يد مجلس العصبة ، ويرجئ النظر فيه إلى أجل غير مسمى

وهكذا مات مشروع تمزيق الحبشة في أيام قلائل تحت ضغط الرأي العـالمي واستنكاره ، ولم يُسمح لايطاليا أن تجني ثمرة اعتدائها الشائن وأن تحقق بالدجل السياسي ما لم تستطع أن تحققه على يد جنودها في ميدان القتال . أما الحبشة فقد رفضت مشروع تمزيقها لأول وهلة ، ورفضته بمنتهى الاباء والقوة ، بل واستطاعت أن تقرن رفضها الأبي بانتصارات محليـة أحرزتها الجيوش الحبشية في مختلف الميادين في نفس الوقت الذي طرح فيه المشروع أمام عصبة الأمم . ومع أن العوامل الحقيقية التي أملت بوضع هذا المشروع ، وحملت السياسة الانكليزية على اقراره ، في الوقت الذي ذهبت فيه إلى هـذا المدى البعيد في مخاصمة ايطاليا ومقاومتها ، لم تتضح إلى الآن وضوحاً كافياً ، فانه يمكن فهمها على ضوء بعض الحوادث والظروف الأخيرة ، وأخصها تفاقم الخطر الياباني في الشرق الأقصى ، وانتعاش الحركة الوطنية في مصر ، وما يذاع من وجود تذمر في الأسطول البريطاني ، وما يبدو من تحرك ألمانيا وتربصها ؛ هذا إلى بعض الاعتبارات الأوربية والاستعمارية العامة ، وهو أنه ليس من حسن السياسة أن تشجع أمة إفريقية سوداء على مقاومة أمة أوربية كبرى ، وأن تترك إيطاليا لتطوح على هذه الصورة بشطر كبير من قواها الحيوية في شرق إفريقية ، في حين أن هذه القوى ذاتها ضرورية لحفظ التوازن الأوربي ومقاومة مطامع ألمانيا في النمسا ؛ ومن جهة أخرى فان هذه الصعاب والمتاعب الفادحة التي تتخبط فيها إيطاليا قد تدفع بها إلى غمار اليأس فيسقط النظام الفاشستي ، وسقوطه في هذا المأزق الدقيق قد يضعف إيطاليا ويصيب التوازن الأوربي بضربة شديدة : فالى هذه العوامل يمكن أن نرجع تطور السياسة الانكليزية الفجائي . بيد أن هنالك حقيقة لا شك فيها هي أن أكبر الفضل في هذا التطور يرجع إلى تذبذب السياسة الفرنسية وترددها ، وإلى ما تبديه من تحيز ظاهر للاعتداء الايطالي ، وما تبديه من فتور ظاهر في تأييد سياسة العقوبات الدولية التي تعتمد عليها انكلترا في تحطيم مشاريع ايطاليا . وتذبذب السياسـة الفرنسية وتحيزها يرجعان إلى عوامل أنانية محضة ، فالحكومة الفرنسية الحاضرة تريد أن تحرص على الصداقة الايطالية بأي ثمن ، وأن تحافظ بكل الوسائل على أن تتقاضى تعاون إيطاليا في أوربا ضد ألمانيا وبالأخص في المسألة النمسوية ، ثمناً لما بذلته فرنسا لايطاليا في الاتفاق الفرنسي الايطالي الأخير (يناير الماضي) من المنح والمزايا السياسية والاستعمارية ؛ وهي تحاول في نفس الوقت أن تحتفظ بصداقة انكلترا ومعاونتها

على أن هذه السياسة التي انكشفت عواملها الأنانية بسرعة لقيت حتفها في الحال في انكلترا وفي الحبشة وفي جنيف ؛ ومع أن السياسة البريطانية استطاعت بسرعة مدهشة أن تستدرك الخطأ الذي وقع فيه السير هور وزير الخارجية البريطانية باقراره لمشروع الصلح ، واستقال الوزير في الحال ليخلفه مستر إيدن بطل سياسة السلامة الاجماعية والعقوبات الدولية على يد عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى بطل سياسة التشديد على إيطاليا ، فان هيبة بريطانيا السياسية قد أصيبت بشيء من التصدع والريب ؛ ذلك لأنه لم يكن خافياً ما ينطوي عليه مشروع الصلح المقدم إلى جنيف

من معنى مستتر ، هو تقسيم الحبشة بين إيطاليا وانكلترا ، واختصاص إيطاليا بالقسم الشرقي الذى تحتل قسماً منه ، واختصاص انكلترا (فيما بعد) بالقسم الغربى الذى تقع فيه منابع النيل الأزرق ، والذى تحرص كل الحرص على استخلاصه من يد أية دولة أوربية أخرى ؛ بيد أن هذا الرجوع السريع الحازم من جانب السياسة البريطانية إلى خطتها الأولى ، أعنى خطة الوقوف فى وجه إيطاليا ومقاومتها عن طريق العمل الدولى ، قد رد إليها كثيراً مما كادت تخسر من هيبة ونفوذ

على أننا نستطيع أن نستخلص من هذه المأساة الدولية درساً بليغاً يؤيد ماذهبنا إليه فى صدر مقالنا بشأن عصبة الأمم ؛ فما كانت العصبة يوما ملاذاً للعدالة الدولية وحقوق الأمم الضعيفة ، ولاسيما الأمم الشرقية ، ولن تكون العصبة يوما ملاذا حقيقيا لهذه المثل العليا . وإذا كان موقف العصبة فى المسألة الحبشية قد أسبغ عليها هيبة لم تتمتع بها منذ نشأتها ، فان الفضل فى ذلك لا يرجع إلى إرادة العصبة ذاتها أو إلى استقلالها ونزاهتها بقدر ما يرجع إلى العوامل السياسية والاستعمارية الخارجية التى شرحناها ؛ وكون العصبة تعمل فى مثل هذه الظروف أداة مسيرة ، لا يؤكد الآمال التى يمكن أن تثيرها نصوص دستورها الخلاب ، بل كل ما هنالك يثير الريب دائماً فى وسائلها وغاياتها . ومع ذلك فان عصبة الأمم يمكن أن تكون أداة حقيقية لتأييد السلام العالمى والعدالة الدولية ، ولكنها يجب قبل كل شىء أن تحرر من ذلك النفوذ الذى يوجهها وينحرف بها عن العمل للغاية الحقيقية التى انشئت لها إلى العمل لغايات السياسة القومية والاستعمارية . وقد رأينا فى مثل إيطاليا وما نالها من أثر العقوبات الاقتصادية ، قوة العمل الاجماعى وتأثيره الفعال فى كبح جماح الشهوات القومية ؛ فاذا صلح دستور العصبة ليلائم الظروف الدولية الحاضرة ، وإذا استطاعت الأمم أن تضع ثقتها فى سياسة الضمان المشترك والسلامة المشتركة ، فان العالم يستطيع أن يتجنب كثيراً من الحروب الاعتـدائية المخربة . ولكن هل تستطيع الدول الاستعمارية الكبرى أن تتجرد عن غايات الأثرة القومية ، أو تعدل عن الالتجاء إلى القوة الهمجية التى تمكنها من أعناق الفرائس الضعيفة المغصوبة ؟

(* * *)

شريف صبحه شهريار أمهر

أنس بن النضر

للأستاذ خليل هنداوى

كتب الله النصر للمسلمين فى غزوة « بدر الكبرى » ؛ وكان نصراً رائعاً للدعوة الاسلامية ، فانصرف المشركون وفى كل عضو من أعضائهم جراحة من أثر بدر ، وفى كل بيت من بيوتهم مناحة لفقد عزيز من أعزائهم يوم بدر ؛ وقد تبرأ هذه الكلوم ، وتهدأ هذه المناحات ، ولكن الغيض كامن فى صدور كأنها الدروع المنطوية فى النار

— ألا يعود يوم كيوم بدر نثأر فيه لشرفائنا ، ونلوك أكباد أعدائنا ! إنه إن يعد — وهبل — نشف منهم النفوس أو تضمنا الرموس .. ..

والمسلمون خلال ذلك تخفق ألوية النصر عليهم ، وأصحاب بدر يخطرون طربين بما أوتوا ، يجلسون حلقات ، هذا يتحدث عن بلائه ، وذلك عن بطشه بأحد رؤوس قريش ، وقد يسمع النبى لحديث من أحاديثهم فيغلب الاشفاق على قلبه ويود لو أن دماء قومه لم تهدر ، ولكن الدعوة تفتقر إلى ضحايا ! وقد يغادر المتحدثون هذه الأصناف من الحديث ، لا لأن بدراً يفرغ حديثها . . . وإنما يعودون إلى التحدث بينهم : كيف ألقى الله الرعب فى قلوب أعدائهم ، وثبت منهم الأقدام ، وزلزل أقدامهم ، ويشكرون الله على صدق وعده لهم ، فما أخف نفوس هؤلاء البدريين الذين قالت جنود الله معهم ! ويكفى أحدهم إذا أراد أن يفتخر أن يقول : « أنا بدرى » ! وما أشد أسى الذين لم يكتب لهم أن يكونوا من جنود هذه الغزوة المباركة !

كيف يمشى هؤلاء الذين لم يحضروا غزوة بدر ، وكيف تطمئن لهم جنوب أو تسكن قلوب ، وقد رأوا أن رفاقهم سبقوا بالأجر : أجر بدر ؟ وكيف يخالطون أصحابهم الغزاة ، وكيف يكلمون الرسول ، وهم يرون فى أنفسهم منقصة تؤخرهم عن مجالس هؤلاء الغزاة ، إنهم ليسوا ببدريين !

حاور أنس بن النضر نفسه فلم يقنعه منها عذر ؛ فآثر أن